إشكالية استعمال الكلمات الدخيلة والعامية
في بعض الأعمال الأدبية والصحفية.

الأستاذ الطاهر ميلة
عضو المجلس الأعلى لغة العربية
أستاذ بمعهد اللغة والأدب العربي
بجامعة الجزائر

لقد بدأت اللغة العربية الفصحى، منذ أوائل القرن التاسع عشر، تسترجع مكانتها، كلغة أدبية راقية ولغة التعامل السياسي والإداري والعلمي، بعد أن جمدت تراكيبها وهجرت ألفاظها وأساليبها، وتخلت عن وظائفها كلغة حضارية عالمية ، لعدة قرون. وقد تم الشيء الكثير في إصلاح أوضاعها خلال القرنين الماضيين، بفضل رجال، بعد فضل الله، كانت عندهم أهداف واضحة، وشجعتهم حوافز قوية؛ حضارية واجتماعية وسياسية. وتقدم هؤلاء الرجال الأدباء والصحافيون والمترجمون. وإليهم وإلى غيرهم، يعود الفضل في كوننا نملك اليوم لغة، عمرها يزيد عن سبعة عشر قرنا، دون تغيير كبير في أبنيتها، بعكس ما هو واقع في معظم لغات العالم اليوم، إن لم يكن في كلها ، وعدد مستعمليها موزع على عشرات من الدول في العالم، زيادة على الدول العربية.

غير أن إصـلاح أوضـاع اللغة العربية ، لم تتحقق أهدافه كلها، إذ اعترضه، ولازال يعترضه عدد من الصعوبات، نظرا لعدة عوامل منها، الصـــراع الحاد بين اللغات الحضـــارية في العقود الأخيرة على وجه الخصـــوص، ومنها وضـــع الأمة العربية الحالي بالمقارنة مع الدول المتقدمة.

نتناول في هذا المقال الصغير موضوعا، يمثل صعوبة من هذه الصـــعوبات، في نظرنا على الأقل، وهو إشـــكالية اســـتعمال الكلمات العامية والدخيلة[1] في بعض الأعمال الروائية والصحفية.

إن من يطلع على الإنتاج الروائي وعلى بعض الأعمال الصحفية في اللغة العربية يلاحظ وجود عدد من الكلمات العامية والدخيلة. ويمكن أن يتأكد من هذا الحقيقة، كل من يقرأ هذا النوع من الإنتاج.غير أن الذي يدرك حجم هذه المســـألة أكثر، هو ذاك الذي يقوم بالجرد المنتظم لهذه الأعمال[2]، إذ يجد أن هذه الظاهرة كثيرة التكرار، خاصـة في النصـــوص الحوارية وفي إعلانات الجرائد، مما يؤدي في كثير من الأحيان إلى عدم فهم ما يرد في هذه الإعلانات، [3] و عدم إدراك الصور البلاغية الواردة في هذه الحوارات[4]،ولاسيما بالنسبة للناطقين بالعربية من غير ذلك البلد الذي صـــدرت فيها تلك الأعمال. ولا يعني ما سبق، أن المسألة تقتصر على الحوار في الأدب الروائي أو على الإعلانات في الصحف، بل ترد أيضا في النصوص الوصفية والسردية، وفي صلب المقالات والاستطلاعات الصحفية.

كنا نظن في البداية، أن القضـــية مرتبطة بعجز في متن العربية الفصيح، فيما يتعلق ببعض المفاهيم الحضـارية الحديثة، وهو ما جعل هؤلاء الأدباء والصـحافيين، يلجأان إلى اسـتعمال العامي والدخيل من الكلمات، لأنهم كانوا، منذ نهاية القرن التاســع عشــر، يشــتكون من الصـــعوبات التي تعترضـــهم في إيجاد الكلمات المناســـبة للمفاهيم الحضـــارية المتداولة في عهدهم،[5] تلك المفاهيم التي تســـارعت حركتها في الظهور بمرور الزمن مما جعل محمود تيمور، بعد ما يزيد عن نصـف قرن، يعيد طرح الانشـغال نفسـه قائلا:" لقد كان أكبر ما نتأذى به – نحن الذين كتب علينا أن نحشر في زمرة الكتاب – أن لغة الكتابة لا تســـتطيع التعبير الدقيق عن حياتنا العامة؛ فالكاتب يعيا بوصـــف مخدع أو مائدة أو نحوهما، إلا أن اختار أحد أمرين أحلاهما مر؛ فإما أن يحشـــد على قلمه الكلمات الأجنبية أو العامية، وإما أن يتخذ للتعبير ألفاظا فصيحة مجفوة، لم تأنس بها الأسماع." [6]

فلما رجعنا إلى المعاجم، القديمة منها والحديثة، وإلى ما اقترحه بعض الأدباء أنفسهم وبعض المجامع اللغوية [7]، ليكون بديلا لما هو متداول من الكلمات العامية والدخيلة وجدنا أن عددا كبيرا من هذه الكلمات العامية والدخيلة المستعملة في الإنتاج الروائي والصحفي، له مقابلات عربية فصيحة، شاع استعمال بعضها، وبقي البعض الآخر ينتظر من ينفض عنه الغبار. أي أن بعض الروائيين والصـــحافيين، رفضوا استعمال كثيرا منها، وفضلوا كلمات أخرى، أقل منها فصاحة. وهذه أمثلة منها

يقترح محمود تيمور في معجمه " معجم الحضارة "، على سبيل المثال لا الحصر الكلمات الآتية : السرداب، الشرفة، المتكأ، المنضدة أو النضد، المدفأة، حاجب الضوء البسطة، الفوارات، سيارة أجرة، قطار النفق.ونجد بعض هؤلاء الأدباء والصحافيين يفضلون الكلمات الآتية [8] بالتتابع، بدلا منها : البدروم، البلكونة، كنبة، الترابيزة، الدفاية الأباجورة، جاتو، المياه الغازية أو الكزازة، تاكسي، المترو.

ويقترح مجمع اللغة العربية بالقاهرة في معجمه " ألفاظ الحضارة ومصطلحات الفنون " الكلمات الآتية: الأزياء الحديثة، حلة السهرة أو بدلة السهرة، الحلة النسوية، السترة شغل الإبرة، الطراز العربي، قائمة، كابحة، دراجة بخارية. ونجد بعض صناع الكلمة يرتاحون إلى الألفاظ الآتية بالتتابع: نوفوتيه، سموكن، تايير، جاكيت، تريكوتاج أرابيسك، كتالوج، فرامل، موتوسيكل.

وتختزن المعجمات العربية، القديمة والحديثة آلاف الكلمات الفصيحة مثل: البطال أو العاطل، الخادمة، الحمية، الأثاث وغيرها. إلا أن البعض من كتابنا يرتاحون إلى مقابلاتها في العامية، وهي: حيطيست، الرجيم، العفش، الشغالة...

لو قال قائل إن هذه الكلمات، غير موفقة، لخلوها من كل الشروط التي تمكنها من الانتشار لدى عامة الناس، لكان قولا مقبولا في رأينا، ولو وضعت لها بدائل في الفصحى أكثر اقتصادا،لأجمع عليها المستعملون، لكن أن ترفض ويكتفى بتبني الأعجمي والعامي، فيحتاج الأمر إلى التقصي.

-فلماذا يلجأ إلى هذا النوع من الكلمات؟

_وما موقف مجامع اللغة العربية من هذا ؟

_ ما هي النتائج التي يمكن أن تنتج عن ذلك؟

-ما هي الإشكالية الكبيرة التي تطرحها مثل هذه المسألة؟

حاولنا أن نعرف أسباب الميل إلى هذا النوع من الكلمات، والعزوف عن استعمال المقترحات البديلة في الفصحى، فوجدنا أن المسألة في غاية من التعقيد، إذ تتحكم فيها عدة عوامل ؛ منها اللغوية ومنها اللغوية الاجتماعية ومنها الفكرية ومنها الفنية ومنها مسائل تتعلق بالتنظيم والتنسيق، وسأكتفي في هذا المقال بالإشارة إلى سببين مختلفين في التسمية وفي المحتوى ومتفقين في الغاية، يقدم أحدهما رجال الأدب ويتعلل بثانيهما رجال الإعلام.

إن معظم رجال الأدب، يؤمنون باللغة الفصحى و بضرورة الدفاع عنها، كإطار عام للتعبير الأدبي، غير أن بعضهم، يؤمن في الوقت نفسه بالواقعية في الأدب[9]، وخاصة في بعض الأجناس الأدبية، كالرواية والقصة والمسرح ، مما اضطر هؤلاء، إلى قبول بعض ما هو موجود في هذا الواقع، حتى لا يقع نوع من التنافر بين الوضعية الاجتماعية والمهنية للشخصيات التي يتحدثون عنها، وبين لغة هذه الشخصيات داخل العمل الأدبي، باعتبار أن لكل فئة اجتماعية تأديتها اللغوية الخاصة بها،كما هو معروف ومسلم به في الدراسات اللغوية الاجتماعية، كما أن للكلمات التي يستعملها الأفراد في حياتهم اليومية ، شحنات دلالية وقوة في التعبير، لا تضاهيها الكلمات الأخرى، ولاسيما

تلك التي تصنع في المكاتب أو تقترحها اللجان، لأن الكلمة، تعبر عن التجربة، ولكل كلمة تجربة، فولادتها وموتها مرتبطة بظهور هذه التجربة أو زوالها.

ويعني ما سبق، أنهم غير متفقين على نوعية اللغة التي يجب أن تستعمل؛ أ هي اللغة العربية القديمة، بخصائصها المعروفة ، أم العربية الفصحى، كما فرضت نفسها في عصرنا الحال.فمنهم من يتحرج في توظيف ما هو متداول في الاستعمال، ويختار الكلمات التي يراها فصيحة، مما هو موجود في التراث، أو مما اقترحه الآخرون حديثا، أكانوا أفرادا أم مؤسسات، ومنهم من يؤمن بالتطور الطبيعي للغات، ويقبل ما هو شائع في هذا الاستعمال مهما كان مصدره ودرجة فصاحته.

وقد ظهر الخلاف أكثر بين هؤلاء الأدباء في لغة الحوار ، إذ انقسموا إلى ثلاثة أفرقة: يرى الفريق الأول ضرورة كتابة الحوار باللغة الفصحى، ويستند على الحجج المعروفة اللغوية والدينية والقومية، كما يرى – وفي مقدمتهم محمود تيمور – أن الواقع، " عند الكاتب ليس مجرد نقل أصم لما هو في الخارج من مسموع ومشهود، كما تسمعه الآذان وتراه العيون، بل هو في الحق الشعور بالواقع وتمثله، والتعبير عنه بمخيلة الكاتب[10] ". ويميل الفريق الثاني إلى استعمال العامية، لأن" جعل الشخصيات تتكلم في العمل الأدبي كما تنطق في واقع الحياة، إنما يضفي على هذا العمل صفة الواقعية؛ ذلك أن تدخل الكاتب

في حوار الشخصيات، بتحويل حوارها العامي إلى حوار فصيح، يؤدي إلى فقدان العمل الأدبي لواقعيته[11].

وحاول الفريق الثالث أن يوفق بين الرأيين السابقين، باستعمال ما يسمى اللغة الثالثة، أو الفصعامية، كما يسميها البعض الآخر، وهي مزيج بين المستويين السابقين من التعبير.

أما حجج رجال الإعلام، فتتمثل في ضرورة التواصل والتبليغ مما جعلهم يميلون إلى استعمال اللغة البسيطة الواضحة، بغرض توصيل الرسالة الإعلامية إلى عامة الناس[12]، لأن وظائف وسائل الإعلام متعددة- زيادة على وظيفة الإعلام الأساسية - منها التوعية ومنها التربية ومنها الترفيه...وهذا ما أدى إلى ظهور برامج وحصص باللغة العامية في جميع الإذاعات والتلفزات العربية. فإذا كان لوسائل الإعلام المسموعة والمرئية، بعض الأعذار، نظرا لنوعية الجمهور الذي تخاطبه والظروف التي تتم فيها عملية البث، فإن للصحافة المكتوبة جمهورا آخر، يختلف عن الأول من حيث النوعية والكم، وظروف أخرى لإعداد النصوص الإعلامية، بحيث يتمكن الصحافي من مراجعة ما يكتب واختيار الأساليب والكلمات التي يراها مناسبة لنوعية قراء صحيفته. وهذا ما يحدث في أغلب الأوقات. غير أن بعض الصحافيين يلجؤون من حين إلى آخر، إلى استعمال عبارات وكلمات دخيلة وأخرى موغلة في العامية، لا مبرر إلى استعمالها ، فيما يبدو لنا، سوى تلك القوة الإيحائية التي يمتاز بها هذا النوع من الكلمات والعبارات، لعمق انغراسها في لغة المجتمع. أما لغة الإعلانات، فهي خالية بوجه عام

من الكلمات العامية، إلا أنها مملوءة بالكلمات المعربة والدخيلة إلى درجة مخيفة، بل هناك في السنوات الأخيرة لوحات إشهارية باللغات الأجنبية بكاملها.ولسنا ندري أ رفع الصحافيون في الوكالة الوطنية للإشهار – وكذلك في الوكالات العربية الأخرى – الراية البيضاء أمام مئات بل آلاف الكلمات الأجنبية، لأن كثيرا من المفاهيم التي تحتوي عليها هذه الإعلانات ليس لها مقابلات في المعجم العربي الحديث، نظرا لحداثتها، أم أن هناك أسبابا أخرى لا نعرفها.

إن موقف المجامع اللغوية من استعمال الكلمات العامية والدخيلة معروف، لأن الدافع الأساسي من إنشاء هذه المجامع هو " المحافظة على سلامة اللغة العربية وجعلها وافية بمطالب العلوم والفنون في تقدمها، ملائمة لحاجات الحياة في العصر الحديث"([13]).ويقصد بالسلامة هنا، محاربة الدخيل والعامي في الدرجة الأولى، وكذا رفض كل ما من شأنه أن يخل بأصول القواعد النحوية والصرفية التي أقرها اللغويون القدامى، ماعدا ما يمكن تخريجه على ضوء تلك الأصول.ويتجلى هذا الرفض في وضع التعريب – كطريقة من طرق توليد الكلمات الجديدة – في المرتبة الأخيرة ، بالمقارنة مع المجاز والاشتقاق والنحت والتأكيد على عدم اللجوء إليه إلا عند الضرورة. أما الكلمات العامية، فلم تشر إليها قراراتها، لكون معظمها منافية لمبدأ السلامة اللغوية،باعتبارها انحرافا على قواعد الفصحى.

ونتيجة لذلك، يمكن القول بلا حرج، أن لغة هذا النوع من الإنتاج الأدبي والصحفي، غير فصيحة في غالبيته، سواء بالمفهوم

القديم للفصـــاحة، كما حددها اللغويون القدامى في حدودها الزمانية والمكانية المعروفة، أو بالمفهوم الحديث للفصـــاحة، لأن مجمع اللغة العربية بالقاهرة، أزال بعض القيود التي وضعها القدامى لهذا المفهوم ، وأضـاف بعض الأحكام القياسـية التي من شـأنها أن تسـاير الاسـتعمال الحديث.

يحق لنـا الآن بعد العرض الموجز لهـذه الظـاهرة التي علاقـة بـالظواهر اللغويـة الأخرى أن نبـدي رأينـا فيهـا، من الوجهـة اللغويـة الاجتمـاعيـة، وأن نبين بعض النتـائج التي يمكن أن تؤدي إليهـا ، والإشـكالية التي يحتمل أن تترتب عنها.ولابد من القول أن الحديث عن هذه النتائج المحتملـة، لم ينطلق من هذه الظاهرة بمفردها، بل هنـاك مؤشرات أخرى لغوية وغير لغوية، تؤيد ذلك، ستكون مواضيع لمقالات في المستقبل إن شاء الله.

إن اســـتعمال الكلمات الدخيلة والعامية ظاهرة عامة في الأدب الحديث عربيا كان أم أجنبيا، إذ يلجأ الأدباء أحيانا إلى اســـتعمال الكلمات العامية التي تنفرد بها منطقة معينة دون غيرها، وتفتقر إليها في الوقت نفســـه اللغة المشـــتركة. فاللجوء إلى اســـتعمال مثل هذه الكلمات، هو في رأينا إثراء للمعجم العام في تلك اللغة، باعتبارها تعبر عن مفاهيم وتصـــورات خاصـــة. كما يلجا الأدباء والصـــحافيون إلى اســـتعمال الكلمات الدخيلة، ولاســـيما تلك التي تطرأ حديثا في لغاتهم، ريثما يوضع لها مقابل مستحسن. وصحيح أيضا، أن الأدباء على وجه الخصـــوص، والمســـتعملين عامة، يرفضـــون في الغالب، ما تقترحه

المجامع اللغوية وبعض المؤسسات التي تحاول أن تفرض عليهم معيارا معينا، باعتبار اللغة سلوكا عفويا، ككثير من السلوكات الاجتماعية. غير أننا نجدهم، في الوقت نفسه، يولدون بدائل لما تقترحه تلك المؤسسات، وهو ما قام ويقوم به بعض أدبائنا، لأن توليد الكلمات واستحداث بعض التعابير، هو من عمل رجال الأدب والإعلام والعلماء في جميع فروع المعرفة.

أما اللجوء إلى الدخيل والعامي، والمبالغة فيه، في غير هذه الحالات، باسم الواقعية وباسم ضرورات التواصل، أو بأي اسم آخر، وهي مفاهيم نوقشت ويمكن أن تناقش من جديد فهو في رأينا، استسلام للواقع ورضوخ له، من قبل نخبة هي التي كانت تثور على هذا الواقع وتحاول أن تغيره بشتى الوسائل.

إن التقصير في كنز ثمين، اسمه اللغة العربية الفصحى أو العربية المشتركة، اختارها أسلافنا عن قناعات راسخة، ودفعتهم إلى ذلك حوافز قوية، لأن أهدافهم كانت واضحة، في وقت، يتوحد فيه غيرنا، بدون لغة واحدة، لكنه يفكر بحزم في إيجادها في أقرب وقت، لما للسان المشترك من فضائل في تدعيم هذه الوحدة، [14] يمكن أن يؤدي إلى نتائج غير محمودة على مستقبل هذه اللغة الشريفة، ولاسيما إذا بالغنا في هذا الاستسلام للواقع وفرطنا في توليد ما يمكن أن يثريها ويجعلها مسايرة لمقتضيات العصر الحديث.

إن الخطورة ليست فيما نحن عليه الآن، لأننا ولله الحمد، لازلنا نجني ثمار عمل أسلافنا في القديم وفي عصر النهضة الحديثة،

وبفضـــل تلك الجهود، تتم عمليات التواصـــل بين أبناء العالم العربي، على الرغم من بعض الصـعوبات الموجودة الآن – وقد أشـرنا هنا إلى واحدة منها –، غير أن الخطورة الحقيقية، تكمن في إشـــكالية نوعية المعطيـات اللغويـة التي تتغذى منهـا اللغـة المشـــتركـة، إذا مـا وقع الاســـتمرار في الانصـــياع لهذا الواقع. وتتضـــح هذه الإشـــكالية في مظهرين:

يتمثل المظهر الأول، في كون اللهجات المحلية تغرف يوميا بلا حرج من اللغات الأجنبية عن طرق كثيرة ومختلفة منها وسائل الإعلام والسلع المستوردة والهجرة ونسبة المتعلمين بهذه اللغات إلخ..وفي قلة التوليـد في هـذه اللهجـات ، إن لم يكن منعـدمـا، نظرا، ربمـا لكثرة المفـاهيم التي تظهر، ولمعطيـات لغويـة اجتمـاعيـة، منهـا مـا يمكن تسميته ب (الحظوة اللغوية)" le prestige linguistique ".

ويتمثل المظهر الثاني فيما يطلق عيه الآن اســـم العولمة، إذ يحتمل أن تنعدم الجدوى من الحدود التي تفصـــل الآن بين الدول، فيما يتصـــل، على الأقل، بتنقل المفاهيم والأفكار والســـلع كما يحتمل أن تستقبل الدول الضعيفة، ومنها الدول العربية، الشيء الكثير مما ينتج خارج محيطها، باعتبارها دولا مســـتهلكة. وإن ربطنا المظهر الأول بالثاني، يمكن أن تكون الإشـــكالية على النحو الآتي: فإذا كانت اللهجات تتغذى مباشرة من اللغات الأجنبية التي تعتبر المصدر الأول لمعظم ما ينتج في العالم، وإذا رضخت العربية المشتركة لهذه اللهجات بأي اسم كان، فلسنا ندري كيف يصبح مستقبل هذه اللغة الشريفة ؟

وكيف يمكن الخروج من هذه الحلقة المفرغة ؟ فهذان تساؤلان موجهان إلى المهتمين بقضايا اللغة العربية المشتركة.

---

1 – نقصد بكلمة الدخيل ما يقصده اللغويون القدامى، وهو الكلمات التي تدخل اللغة العربية وتحتفظ ببعض خصائصها الصوتية والصرفية.

2 – لقد قمنا بهذا الجرد .

3 –انظر الإعلانات الواردة مثلا في جريدتي الأهرام والخبر، ولاسيما الاقتصادية منها.

4 –راجع على سبيل المثال عرس الزين، للطيب صالح.

5 – إبراهيم اليازجي، مجلة الضياء، سنة 1900، 2/ 249-250.

6 – مقدمة معجم الحضارة، ص. 10.

7 – انظر المصدر السابق وكذلك معجم ألفاظ الحضارة ومصطلحات الفنون لمجمع اللغة العربية بالقاهرة.

8 – إن هذه الأمثلة وغيرها موثقة، ستقدم كملحق ضمن دراسة جامعية.

9 – ارجع فيما يتصل بهذا الموضع، على سبيل المثال إلى:

–بدري عثمان، وظيفة اللغة في الخطاب الروائي الواقعي عند نجيب محفوظ، أطروحة دكتوراه الدولة في الدب العربي الحديث، جامعة الجزائر، السنة الجامعية 1996–1997، ص 112 فما فوق.

–فتح الله أحمد سليمان، الفكر اللغوي وألفاظ الحضارة عند محمد تيمور، مكتبة الآداب، القاهرة، 1993، ص 10 فما فوق.

10 –محمود تيمور، القصة في الأدب العرب ص25. نقلا عن المرجع السابق،ص.14.

11 –فتح الله احمد سليمان، المرجع السابق، ص 13.

12 –ارجع في هذا الموضوع إلى:

– مصـــطفى الســـيد، اللغة العربية في إطارها الاجتماعي، معهد الإنماء العربي بيروت، 1981.

– عبد العزيز شـــرف، العربية لغة الإعلام، منشـــورات دار الرفاعي للنشـــر والطباعة والتوزيع، الطبعة الأولى، 1983.

13 –محمد خلف الله أحمد ومحمد شـــوقي أمين، مجموعة القرارات العلمية، مجمع اللغة العربية بالقاهرة، الطبعة الثانية، 1971.

14 –انظر في هذا الموضوع مقدمة كتاب:

Les langues dans l'europe de demain., sous la direction de Fernand Carton et J.M oderic Delefense, presse de la Sorbonne Nouvelle, Paris, 1994.